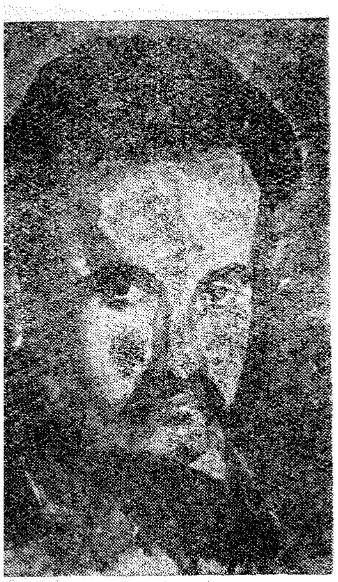

بحث الشهر جبران في عالمه الفكري

بقلم الدكتور نديم نعيمة

- ١ -

بديهي ان نقول ، ان الشيء - اي شيء - هو دائما ككل ، اكبر واعظم من الاجزاء التي يتكوّن منها . وحكم كهذا يصح اكثر ما يصح في الكائنات الحية ، ذلك اذا كان في هذا الوجود اللامتناهي ما يمكن ان يعتبر بلا حياة . من هنا يبدو ان الحقيقة الكاملة لاي شيء من الاشياء ، مهما كان صغيرا وتافها ستظل ابدا ابعد من ان يطولها التنقيب واشمل من ان يبلغها بحث وتحليل . حتى لكانه محتوم علينا كعلماء وفلاسفة وباحثين ومحللين ، اذ نسعى الى الحقيقة الكاملة في الاشياء وفي الوجود ككل ، الا ننتهي الا الى انصاف الحقائق . فنحن نعمد الى تشريح جسم حي وتعليله فيكون ان ننتهي الى جثة ، ونتناول شجرة نامية بالتقسيم والتحليل فتتحول بين ايدينا الى حطبة ، ونخضع الذرة للمراقبة والتمحيص والدراسة فلا تلبث ان تخرج من تحت مجهرنا معادلة رياضية . وهكذا يبدو ان الذي يؤدي اليه سعينا المحموم عن طريق العقل وسائر علومه من اجل معرفة الاشياء هو ان نعرف الكثير عنها . اما ان نعرف الاشياء ذاتها في ترابطها الديناميكي الحي ، اما ان نعرف الوجود في ترابطه العضوي الحميم ، فمطلب يتخطى بتعريفه كلا من العقل والعلم والفلسفة . ان نحاول مثل تلك المعرفة ؟ اي ان نعرف الاشياء ذاتها لا مجرد ان نعرف عنها ، يعني ان نعبر من الفلسفة الى الشعر ، ومن العلم الى الدين والتصوف .

انها اذن لمفارقة حقا ان الذي سنحاول هنا تمحيصه وتحليله ليس غير شاعر وصوفي . فنحن اذ نعمد الى اعمال جبران خليل جبران محاولين غربلتها بغية استخلاص مضامينها الفكرية والفلسفية، وتعريتها ، انما نبدو وكاننا نسوق انفسنا الى المزلق الاكيد . اننا نحاول ان نرد عالما شعريا متكاملا هو عالم جبران ، الى عناصره المكونة بغية عزل واحد من تلك العناصر واستخراجه وبلورته ، واعني به العنصر الفكري ، في حين ان العالم الشعري ، عالم الشاعر الاصيل او الصوفي الاصيل ، لا يتكون من عناصر واجزاء . انه بالاحرى حال من الوعي والوجود ينصهر فيها جميع ما يسمى بالثنائيات والعناصر المكونة والجزئيات في نسيج متماسك حي بحيث لا يجوز للدارس ، اذا هو لم يشأ لنفسه الاكتفاء بانصاف الحقائق عن اي جانب من جوانب تلك الحال ، ان يجزيء ويحلل ويفسر . فما جدوى ان يقال مثلا ، ان جزءا من فلسفة جبران كشاعر هو ايمانه بالتقمص؟ انه كان يؤمن بالتقمص ، واقع لا شك فيه . ولكن « الواقع » كما يقول جبران نفسه « هو ابدا حقيقة مخنثة » (١) .

ان نعرف ان جبران كان يأخذ بفكرة التقمص هو نصف الحقيقة عن جبران . اما الحقيقة الكاملة ، اما الحقيقة غير « المخنثة » ، فتتحصل فقط عندما نحيا عقيدة التقمص كما عاشها جبران في عالمه الشعري، فيكون ان يتخذ عالمنا فجأة شكلا اخر غير الذي تعودناه . انه عالم اول ما يقال فيه ان المجانين فيه فقط هم العقلاء ، وان التائهين هم المهتدون ، وان المغنين نشازا فيه هم وحدهم المنسجمون مع النغم السوي . وتعليل هذا هو في ان ابناء جيل نحن فيه هم ايضا ابناء الاجيال السالفة . ولما كانت ذاكرة الغالبية العظمى بيننا قصيرة، كان ان القليلين منا ممن يبدون وكانهم يسيرون على غير ايقاعات جيلهم ، هم المنسجمون في سيرهم مع ايقاعات الحياة المتناغمة تراجعا وتواصلا حتى الازل . فتعاقب الاجيال التي يزحم بعضها بعضا في تاريخ الوجود ، كما توحي به احدى مقطوعات جبران القصصية الشعرية الباكرة ، ليس غير الرماد المتكدس حول اللهب الابدي المشتعل (٢).

ان غايتي من التشديد على ان الفكر عند شاعر اصيل هو حالة وجود اكثر منه عملا ذهنيا ، ليس ان امهد للاعتذار عن فلسفة جبران. فجبران المفكر والفيلسوف قد لا يعتبر مهما او جديدا او اصيلا على الاطلاق . وغايتي ان انبه الى ان الفكر كحالة وجودية معاشة في الشعر ، هو متميز واكثر بما لا يقاس ، من الفكر عينه وقد اصبح موضوعا للعقل المحلل المعلل الدارس . ان الدويدة عينها التي تبدو في كتاب لعلم الاحياء ظاهرة تركيبية غاية في السهولة على الفهم ، تبقى بحد ذاتها نسيج حياة معجز . وتبرز قيمة هذا التنبيه اكثر فاكثر عندما نعي اي اهمية ثانوية يعطيها جبران نفسه للذهن ، محترف التفكير والتحليل ، بالقياس الى القلب ، ينبوع الالهام والعاطفة والحياة ، للعقل اذا ما قورن بالايمان ، وللفلسفة اذا ما قوبلت بالشعر . من هنا قوله في احدى شذراته : « عندما لا تجد الحياة مغنيا يفصح عن قلبها تلجأ الى ايجاد فيلسوف يعبر عن فكرها » (٣) .

---

١ - Sand And Foam ص ٥٩ .

٢ - راجع « رماد الاجيال والنار الخالدة » في المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران ج ١ ص ٦١ .

٣ - Sand and Foam ص ١٥ .

ولما كان جبران قد اتخذ لنفسه في جميع مؤلفاته دور المغني الملهم الذي ندبته الحياة للتعبير عن قلبها ، فانه قط لم يشأ ان يخاطب عقولنا ولا هو شاء لنا ان نتوجه الى عقله . اننا ابدا مدعوون الى قلبه لا الى عقله ، الى ان نحس ونحيا ما يغنيه قبل ان نفهم او نستوضح ما يقوله غناه . يقول جبران : « الالهام ابدا يغني ولكنه قط لن يفسر » (٤) . ويقول في مكان اخر : « التفكير هو دائما حجر العثرة في طريق الشعر » (٥) . وكثيرا ما يبلغ جبران ـ شاعرالقلب والالهام ـ في تعاليه على العقل كطريق بديل الى الحقيقة ، حد التهكم الجارح . يقول : « العقل فينا اسفنجة والقلب جدول . انه لغريب حقا ان الغالبية بيننا تختار الامتصاص عوضا عن التدفق » (٦).

اما وقد اخترنا هنا ان نمتص من شعر جبران عوضا عن ان نتدفق معه ، اما وقد اخترنا التحليل العقلي المجرد عوضا عن التمثل الشعري الحي ، فقد وضعنا انفسنا امام مفارقتين : الاولى اننا نكلف انفسنا تحليل العناصر الفكرية عند شاعر هو نفسه يجفو بطبيعته الفكر والتحليل . والثانية اننا في اعتماد الدرس والتحليل بغية الحصول على كامل الفكر الجبراني ، انما نحول الشعر الذي هو حالة وجود وحياة الى معادلات فكرية مجردة تغدو ، وقد تعرّت ، انصاف ما كانته في الاصل . اما عذرنا في اننا نرضى ، على الرغم من كل ذلك ، ان نتابع ما نحن بصدده فمستمد ايضا ـ مهما بدا ذلك مستغربا ـ من جبران نفسه . ذلك انه يقول في احدى شذراته : « ان نصف ما اقوله هو بلا معنى . الا انني مع ذلك اقوله كي يتسنى للنصف الاخر بلوغك » (٧) . وان املي اذ احلل الفكر الجبراني واجرّده من حياته الشعرية فافرغه هكذا من نصف معناه ، ان اخدم ذلك النصف الحي الاخر الذي لن يطوله تحليل .

ـ ٢ ـ

يقول « المصطفى » ، نبيّ جبران ، في حديثه عن العمل الى اهل اورفليس : « انما العمل حب وقد برز الى النور » (٨). ومن الانصاف لجبران اذن ، ان نحن شئنا فهم اعماله ، وهي ثمانية بالعربية وتسعة بالانكليزية ، ان نعتبرها المظاهر المختلفة لحبه الذي برز من خلالها الى النور . اما وان موضوعنا هو الاصول الفلسفية لهذه الاعمال، اما وانه الفكر الجبراني في هذه المؤلفات ، فقد تحتم علينا ان نجد انفسنا وجها لوجه امام الحب بهذا المفهوم الجبراني المعين . ونحن ما ان نتناول هذا المفهوم ، الذي يشمل في نظرنا الروح الموحدة لاعمال جبران على اختلافها ، حتى نجدنا ايضا منساقين الى الاستعانة باحد اساتذة الحب في التاريخ ممن لم يكن قط اقل شاعرية من جبران في هذا الموضوع ، وكان في الوقت نفسه اعظم منه كفيلسوف بما لا يقاس . اما الذي نعنيه بهذا المحب العملاق ، فافلاطون .

في « المائدة » اهم كتاب في فلسفة الحب عند افلاطون، وربما في التاريخ ايضا ، ان الحب اعظم شاهد على شعور الانسان بالنقص. فان نكون عاشقين يعني ان نكون في حالة توق الى محبوب او اخر نعتبر انفسنا بدونه ناقصين . من هنا قول افلاطون مجازا ، ان الحب سليل زواج قام بين الحاجة والاستغناء . هو ابن الحاجة من جهة ، لان المحب ابدا ، طالب محتاج . وهو سليل الاستغناء من جهةاخرى، لان غاية المحب اذ يسعى جاهدا الى وصل من يحب او ما يحب هي في ان يبلغ بالوصال حالة من التمام والاستكفاء . ولكن انى لنا ونحن نحيا في عالم الزمان والمكان ، ان نبلغ حقا مثل تلك الحالة؟ انه لمحكوم قطعا على انسان يحيا في هذا العالم ، عالم التكون والانحلال ، عالم الصيرورة والتحول لا عالم الازلية والثبات ، ان يبقى ابدا في حالة نقص واحتياج ، وبالتالي في حالة عشق مستمر . فهو ما ان ينتهي الى ما يحسبه غاية شوقه وهيامه ومشتهاه ، حتى يتبين ان تلك الغاية ليست في حقيقتها غير البداية لغايات اخرى واشواق جديدة . فقط عندما يقيض للانسان ان يفهم ، كما فهم افلاطون ، ان عالم الزمان والمكان ليس غير الصورة المتحركة لوجه الازلي الثابت ، وان الانسان ، وان كان مزروعا في عالم الزمان والمكان ، ليس في جوهره من ابناء ذلك العالم ـ فقط عندما يبلغ الانسان مثل هذا الوعي يقيض له ان يدرك ان حبا يشده طيلةحياته الارضية الى الاتحاد بما من شانه ان يطفىء فيه الشوق ويسد النقص ويروي الحنين ، انما هو في حقيقته توق الغريب المستوحش في عالم الصيرورة والفناء الى الاتحاد بالازلي المطلق .

ما ان يرى الحب بهذا المنظار الافلاطوني حتى يتكشف عن القطبين الدهريين المتقابلين في الحياة البشرية ، اللذين ينشد الانسان الواعي لوجوده ولطبيعته ابدا بينهما حتى ليكاد ان يتقطع . ففي الجهة الاولى يبرز قطب الانسان ، ذلك البذار الالهي المزروع فيالتربة الغريبة ـ تربة الزمان والمكان ـ والملتهب شوقا وحنينا الى ان ينمو ويسمق فيحقق ذاته ويكمل . وينتصب في الجهة الثانية القطب الالهي . انه عالم الحقيقة الميتافيزيقية المطلقة الذي منه كان صدور الانسان الاول والذي لا يكتمل للانسان نفس فيهدأ شوق ويطفأ لهيب الا بالرجوع اليه والاتحاد به والذوبان فيه . كلا القطبين المتشادين في الانسان الى حد التمزق ، لا زماني لا مكاني ، كلاهما علويّ الهي . ولكن طريق الانسان الى ان يضم قطبا الى قطب في نفسه فيجمع شمله وينهي تمزقه وصلبيه ، تمر عبر الزمان والمكان.ولان غالبية الناس العظمى من سالكي هذا السبيل ليس عندهم ذلك الوعي الافلاطوني لمصدرهم العلوي ولا لغايتهم الالهية التي ينبغي ان ينتهوا اليها ،تراهم منجذبين حتى الاستغراق الى ما يستهويهم في دربالحياة اليومية من اغراض زمنية قريبة مموهة . هؤلاء هم العشاق المخدوعون . وهكذا يبقى للقلة ، للقلة الضئيلة جدا من ذوي الوعي الافلاطوني ، الذين يسيرون في درب الحياة وعيونهم مسمرة ابدا على عالم الحقيقة العلوية البعيدة المطلقة ـ يبقى لهذه القلة ان تروي وحدها حكاية الغربة العظمى التي تكتنف النفس البشرية في عالم الصيرورة وقصة شوق تلك النفس المحرق الى الديار ، وحنينها المخضوب بدم الاماني الممزقة على درب الانعتاق . ولقد كان جبران خليل جبرانفي جميع كتاباته كما في رسومه واحدا من تلك القلة الضئيلة. فنحن نكاد لا نعثر على شيء مما كتبه هذا الرجل او رسمه الا وهو في جوهره تعبير عن نفس معذبة ، نفس يكويها الشعور بالغربة في عالم هي فيه ، ويشويها الشوق اللافح الى عالم مثالي ما ، يبدو وكانه يمعن بعدا وتحجبا كلما ازدادت توقا وحنينا اليه . حتى ليصح ان يقال في جبران انه شاعر الحنين والغربة . واننا سنحاول في ضوء هذا الحنين وتلك الغربة ان نتبين عالمه الفكري ونترسم خط تطوره .

ـ ٣ ـ

ان يكون انسان ما مهاجرا يعني ان يكون غريبا . اما ان يكون المهاجر شاعرا ، وشاعرا رومنطيقيا ، فذاك يعني ان غربته مثلثة .فهو بالاضافة الى غربته الجغرافية ، غريب كشاعر ، عن مجتمع الناس التقليدي ـ هذا اذا كان للناس ان يجتمعوا على شيء سوى التقليد ـ وغريب ايضا كرومنطيقي عن كل ما يشده الى عالم الزمانوالمكان.من هنا كان لا بد لغربة مثلثة كهذه في نفس شاعر رومنطيقي ، ان تلهب

---

٤ ـ م . ن ص٢٣ .
٥ ـ م . ن ص ٢٤ .
٦ ـ م . ن ص ١٢ .
٧ ـ م . ن ص ١٤ .
٨ ـ The Prophet ص ٣٢ .

فيه حنينا مثلث الوجوه . انه حنين الى الوطن ، وحنين الى مجتمع انساني مثالي يلجأ اليه الشاعر ولو بالخيال ، وهو من جهة ثالثة حنين الى عالم خلف الزمان والمكان ، عالم الحقيقة العلوية الالهية المطلقة . هذا الحنين المثلث هو الذي تكونت منه تلك القيثارة ذات الاوتار الثلاثة التي عزف عليها جبران الحان حياته جميعا. ان تطور عزفه من مرحلة الى اخرى ، كما يبدو من سياق مؤلفاته لم يكن ناجما عن اي تبديل اجراه على آلته او في عدد اوتارها ـ فهو قط لم يعرف العزف على اكثر من تلك الاوتار ـ بل عن اختلاف في توزيع الضرب بحيث كانت تطغى انغام وتر ما في هذه المرحلة او تلك عن انغام رفيقيه . اما المرحلة الوحيدة التي تعادلت فيها انغام تلك الاوتار تحت انامل جبران فوصلت الى شبه هارمونية اثيرية مهومة ، فمرحلة « النبي » كتابه الام حيث يصبح كل من وطن المصطفى والمجتمع الانساني المثالي المسحور ، والعالم العلوي الالهي المطلق ، اقانيم متساوية لحقيقة واحدة .

لعل خير توطئة « للنبي » ولسائر مؤلفات جبران الاخرى التي هي حصيلة حنينه المثلث وتجسيد له ، هي كتابه « الموسيقى » الذي افتتح به حياته الادبية ، والذي طبعه بعد احدى عشرة سنة من هجرته الاولى الى بوسطن وهو غلام في الحادية عشرة . هذا الكتيب ذي الصفحات الثلاث عشرة ، الذي يشبه ان يكون في اسلوبه مسابقة انشائية لطالب ثانوي ، هو تشبيب بالموسيقى اكثر منه مقالا فيها ودراسة عنها . فهو من هذه الناحية يعكس لنا الكثير من جبران المشبب والقليل القليل من مادة موضوعه . اما جبران المشبب فيبدو عاطفيا متماديا في عاطفته حتى المراهقة . الا انه مراهق يعرف كيف يسكب عواطفه في لغة هي غاية في الشاعرية وان تكون بعد طرية العود محدودة الموارد ، مقلقلة القواعد . اما اهمية الكتاب كتوطئة للفكر الجبراني ففي ما يكشفه في نفس صاحبه من معالم تلك الغربة الميتافيزيقية وهي بعد في خطوطها الاولى ومما تولد عنها عند الفتى من حنين ضبابي مبهم كئيب . من هنا كان لجبران اليافع ان يرى في الموسيقى الاثيرية الكئيبة المهوّمة توأما لروحه وان يخاطبها في هذه الاسطر التالية بما يمكن ان يعتبر نموذجا صادقا عن الكتاب ككل ، ان من حيث الروح او الاسلوب .

« يا ابنة النفس والمحبة . يا اناء مرارة الغرام وحلاوته . ياخيالات القلب البشري . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح . يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة .. يا خمرة القلوب الرافعة شاربها الى اعالي عالم الخيالات . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين . يا ايتها التموجات الاثيرية الحاملة اشباح النفس ويابحر الرقة واللطف ، الى امواجك نسلم انفسنا وفي اعماقك نستودع قلوبنا ، فاحمليها الى ما وراء المادة وارينا ما تكنه عوالم الغيب » (٩) .

ـ ٤ ـ

من موسيقى سنة ١٩٠٥ وحتى بداية عهد « النبي » سنة ١٩٢٣ الذي بدا فيه حنين جبران الطويل وكأنه قد حمل صاحبه « الى ما وراء المادة » واطلعه على الكثير « مما تكنه عوالم الغيب » ، مرت مؤلفات جبران كما مرّ فكره بمرحلتين اثنتين : الاولى مرحلة «عرائس المروج » و« الارواح المتمردة » و(الاجنحة المتكسرة) و(دمعة وابتسامة) وهي جميعا مؤلفات شبابه التي ظهرت ما بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٤ . اما الثانية ، وهي الانضج نسبيا ، فمرحلة « المواكب » و« العواطف » بالعربية وثم (المجنون) ، اول مؤلفاته الانكليزية و« السابق » ثانيها الذي كان بمثابة التمهيد لظهور « النبي » .

من الطبيعي في المرحلة الشابة الاولى من مؤلفات جبران ، ان يطغى وتر الحنين الى لبنان تحت انامل جبران العازف ، على الوترين الباقيين في قيثارته . انه هنا جبران المرتبط جسدا بحيّ الصينيين في بوسطن ، موطن هجرته الاول ، والمشدود روحا الى لبنان بشرّي وقاديشا وارز الرب ، مرتع الاثنتي عشرة سنة الاولى والمكونة في حياته .

تضم « عرائس المروج » مجموعة من ثلاث قصص قصيرة، بينما تشتمل « الارواح المتمردة » على اربع أخرى . اما رواية (الاجنحة المتكسرة) فيمكن ، مع القليل من التجاوز ، ان تعتبر قصة قصيرة مطولة . وهكذا يصبح بالامكان ، اذا نحن تجاهلنا اسماء هذه الكتب وتواريخ صدورها ، ان نعتبرها مجموعة من ثماني قصص قصيرة متشابهة روحا واسلوبا واغراضا الى حد الترداد . فهي جميعا تتخذ لنفسها اطارا واحدا لا يتبدل : انه لبنان ، ارض الجمال الطبيعي المسحور . وهي جميعا تقوم على ابطال ، ان نحن تجاوزنا الاختلاف في اسمائهم واوضاعهم الزوانية المباشرة ، غدوا وكأنهم في الحقيقة واحد من حيث الجوهر ، او هم اقنعة متعددة لوجه واحد هو جبران خليل جبران نفسه في هذه المرحلة الشابة من حياته . حتى ان جبران هذا كثيرا ما لا يحفل بان يلبس قناعه ويخفي هويته . كان يسمي احد ابطال قصص « الارواح المتمردة » خليل الكافر » او يستخدم في « الاجنحة المتكسرة » ضمير المتكلم . فجبران ولبنانه اذن هما اللاعبان الاساسيان على المسرح في جميع هذه القصص : لبنان وطن خيال جبران المسحور وموضوع حنينه في بوسطن ، وجبران المشتعل عشقا لوطنه المسحور وحنينا اليه .

الا ان جبران العاشق هذا ، شأنه شأن معظم المتيمين من العشاق، انما يلجأ في اقناع المعشوقة بحبه الصافي الالهي البريء واستمالتها، الى المبالغة في تصوير الرياء والعهر والبغاء في جميع منافسيه على قلبها . اما المنافسون على امتلاك لبنان قلبا وروحا ، فهم ،كما بدا لجبران رجال الكنيسة في لبنان القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، ونبلاؤه واقطاعيوه . من هنا جاءت الحبكة في هذه القصص ـ وبلا استثناء تقريبا ـ من النوع الذي ييسر لجبران البطل او لبطل جبراني ان يصطرع مع واحد او اخر من هؤلاء المنافسين . فاذا لم يصرعه استطاع على الاقل ان يشهر به وان يعطي نفسه في الحالين مداها للتفنن في وصف لبنان والتشبيب به طبيعة وسحرا وجمالا .

يجمع الحب في « الاجنحة المتكسرة » بين جبران الشاب وسلمى كرامة . ولكن مطران المدينة يفرّق بين قلبين ارتبطا ببراءة الحب ليزوج سلمى مرغمة من ابن اخيه الفظ الغليظ . وهكذا ينفتح الباب واسعا امام جبران الكاتب ليشبع نهمه من التغني بجمال لبنان مسرح حبه المسحور ، وليصب جام نقمته وغضبه من جهة اخرى على رجال الدين الذين يلبسون مسوح الطهر الاخروي ليستروا بها عري العهر الدنيوي الصارخ في نفوسهم .

اما « خليل الكافر » في « الارواح المتمردة » فيطرد خارج الدير في احدى ليالي الشتاء الثلجية المسعورة ، لا لشيء الا لانه ، كما تصوره القصة ، كان اقرب الى المسيح وتعاليمه مما كان باستطاعة رئيس الدير ورفاقه الرهبان ان يتحملوه . وكان لخليل ان تنقذه من العاصفة في اخر لحظة ، ارملة وابنتها الجميلة بعد ان سمعتا انينه من كوخهما المنفرد عند طرف القرية . ولا يمضي طويل وقت على تخفي خليل عند منقذتيه حتى تؤخذ الام بمسيحيته اللاكهنوتية المتحررة البكر فتصبح من مريديه ، وتنشغف الابنة بنبل شخصيته وطلعته فيتحابا . وعندما يكتشف خليل ويلقى عليه القبض من قبل رجل الاقطاع

٩ ـ المجموعة الكاملة . ج ١ ، ص ٥٧ .

في المنطقة ويؤتى به الى المحاكمة امامه بتهمة الكفر والخروج على القانون ، ينتصب خليل في وسط جماهير البسطاء من الفلاحين المزابعين الذين تجمعوا للتفرج ، ويتكلم كمسيح في مجيئه الثاني . ويمفنط دفاعه ، الذي لا يلبث ان يتحول الى هجوم كاسح على الكنيسة والاقطاع وعلى ما بينهما من تحالف على الاستبداد ، قلوب القرويين الطيبيين البائسين ، فيلتفون حوله ثائرين متحدين . وتكون النتيجة ان ينتحر الاقطاعي هلعا ويولي الكاهن المدعي هاربا . اما خليل فيقترن بفتاته . واما القرية فتحيا بعدها حياة اجتماعية سعيدة في ظل المحبة والتعاون والعدل الطبيعي وبساطة التقوى في المسيحية البكر الاولى .

ويأتي « يوحنا المجنون » في «عرائس المروج» وكانه الصورة المكررة لخليل الكافر . يغفل يوحنا الراعي لحظة عن عجوله فتدخل املاك الدير . فلا يكون من رئيس الدير ورهبانه الا ان يسجنوا الراعي ويحتجزوا العجول لقاء ما زعموا انه تعد على املاك مقدسة . وعندما يطلق سراح يوحنا بعد توسل مستميت من والديه ، ينتظر عيد الفصح وتجمع المصلين في الكنيسة ، ليهتبلها فرصة يتوجه فيها الى الجموع بخطبة بليغة صب فيها كل غضبته على رجال الكنيسة ورؤسائها: انهم الفريسيون المحدثون اعداء المسيح ، الذين يعيشون وينعمون في غفلة عن رسالتهم الحقيقية وعلى حساب البسطاء الكادحين البائسين الذين في قلوبهم حقا يقطن المسيح . ففي هؤلاء الفريسيين الجدد يقول يوحنا:

« لقد اقاموا يا يسوع لمجد اسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج ، والذهب المذوب ، وتركوا اجساد مختاريك الفقراء عارية في الازقة الباردة ، وملأوا الفضاء بدخان البخور ولهيب الشموع ، وتركوا بطون المؤمنين بالوهيتك خالية من الخبز ، وافعموا الهواء بالتراتيل والتسابيح ، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الارامل . تعال ثانية يا يسوع الحي واطرد باعة الدين من هياكلك فقد جعلوها مغاور تتلوى فيها افاعي روغهم واحتيالهم » (١٠) .

ولان يوحنا كان ينطق بالحق الخالص في نظام طبقي مستبد ، من اعدى اعدائه الحق والاخلاص ، فقد اعتبر مجنونا لا يستحق الاهتمام . وهكذا درج الناس على تلقيبه ساخرين بيوحنا المجنون .

قد يتوقع بعد كل هذا ان نعتبر جبران القصّاص مصلحا اجتماعيا او ثائرا فكريا . وانه على اي حال كثيرا ما اعتبر كذلك من قبل مقيمي ادبه وفنه . والذي يشجع على مثل هذا الاعتبار ان ابطال قصصه منهمكون ابدا — وان يكن كلاما وخطابة — في خوض معارك تتسم بطابع اجتماعي اصلاحي . اما مثار العراك فقضايا ثلاث تكاد تكون دائما هي هي في جميع القصص : حب سماوي بريء يطغى عليه ويدنسه ويقضي عليه مجتمع لا يفهم الحب الا وسيلة لمآرب انانية قذرة ولاغراض دنيوية خسيسة ، رجال دين يجمعون الثروة والقوة والسلطان باسم المسيح ورسالته بينما هم في الواقع اعدى اعداء المسيح ورسالته، نظام اقطاع لرجال اقطاع يمتصون دماء الناس ليغذوا الوحش الذي احتل في قلوبهم مكان الانسان .

الا ان جبران ، على الرغم من جميع مظاهر الثورة والاصلاح الاجتماعي يبقى في قصصه هذه ابعد من ان يستحق لقب الثائر او المصلح الاجتماعي .

ان تكون مصلحا ثائرا يعني ان يكون لديك البديل لما انت ثائر ضده . ولكن ايا من ابطال جبران هؤلاء لا يوحي بانه يحمل بديلا جوهريا ما . او ان ما يحملونه من بديل — اذا جاز ان يعتبر كذلك — لا يتعدى كونه مجرد سلب لما يثورون عليه . فالبديل عن الحب الفاسد المفسد مثلا هو ، كما يبدو عند ابطال جبران ، عدم وجود حب فاسد مفسد . او انه ذلك النوع من الحب الخيالي المسحور الذي نلقاه في « الاجنحة المتكسرة » . والبديل عن نظام اقطاعي هو انعدام وجود نظام اقطاعي ،انه ذلك النظام الاجتماعي الذي بلا نظام معين، كالذي ننتهي اليه في « خليل الكافر » . والبديل عن كنيسة اصبح رجالها بلا مسيح هو مسيح بلا كنيسة ولا رجال على الاطلاق ، بلا جسم عقائدي محدد . اي انه مسيح مجنون كالذي ننتهي اليه في يوحنا .

ان مصلحا اجتماعيا ثائرا لا يملك البديل المحدد لما يثور عليه سرعان ما تنقلب البطولة فيه الى شذوذ فيتحول من بطل اجتماعي مصلح الى شاذ عن المجتمع لانه عاجز عن ان يتكيف معه فيكيفه . من هنا كان ابطال جبران — وربما بلا استثناء — « كفتارا » و «مجانين» و(تائهين) وحتى « انبياء » و « آلهة » . انهم في كل ذلك يمثلون جبران حيّ الصينيين المغترب القلق المستوحش الشاذ في مجتمع هو فيه ، والمشدود ابدا عبر حنينه وخياله الى لبنان موطن طفولته المسحور وارض تطلعاته الى عالم من الجمال البكر المؤنس والعيش الدافىء الحميم .فكان همّ جبران الحقيقي اذ يثور عبر ابطاله ، ليس ان يجتث المفاسد التي تشوّه المجتمع في لبنان الجميل ، بل ان يحطم المجتمع الفاسد الذي يشوّه الجمال البكر في طبيعة لبنان التي بلا شائبة . ان همه الاول هو لبنان الطبيعة والجمال والطفولة ، وليس لبنان المجتمع والانسان .

وتزداد صورة هذا النوع من لبنان الذي تعمر به مخيلة جبران وضوحا ، في مقال لاحق حيث يقف لبنانه المرتجى المنشود واولئك الذين كانوا موضوع نقمته وثورته في قصصه وجها لوجه . ان اقصى ما يستوحى من خطاب جبران الى هؤلاء المفسدين في هذا المقال الذي دعاه « لكم لبنانكم ولي لبناني » ، ليس كيف يمكن تحويل لبنان الى مجتمع افضل ، بل كم هو لبنان جميل وخلاب بلا مجتمع على الاطلاق. يقول :

« .. لكم لبنانكم ولي لبناني .
لكم لبنانكم ومعضلاته ، ولي لبناني وجماله .
لكم لبنانكم بكل ما فيه من الاغراض والمنازع ،
ولي لبناني بما فيه من الاحلام والاماني ...
لبنانكم عقدة سياسة تحاول حلها الايام ، اما لبناني فتلول تتعالى بهيبة وجمال نحو ازرقاق السماء .
لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي ، اما لبناني فاودية هادئة سحرية تتموج في جنباتها رنات الاجراس واغاني السواقي ...
لبنانكم مرافىء وبريد وتجارة ، اما لبناني ففكرة بعيدة وعاطفة مشتعلة وكلمة علوية تهمسها الارض في اذن الفضاء ...
لبنانكم طوائف واحزاب ، اما لبناني فصبية يتسلقون الصخور ويركضون مع الجداول ويقذفون الاكر في الساحات ...
لبنانكم خطب ومحاضرات ومناقشات ، اما لبناني فتغريد الشحارير ، وحفيف اغصان الحور والسنديان ورجع صدى النايات في المغاور والكهوف . « (١١)

— التتمة على الصفحة ٤٥ —

١٠ — م . ن ج ١ ص ١٠١ .

١١ — م . ن ج ٣ ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

جبران في عالمه الفكري

– تابع المنشور على الصفحة ٢١ –

لا عجب اذن في ان يكون الخام الذي انهت عنده هذه المرحله الاولى من حياة جبران الادبية ليس خطوات لاحقة في الثورةوالاصلاح بل كتاب « دمعة وابتسامه » . ان الدموع التي تطغى على البسمات في هذه المجموعة من المنثورات الشعرية هي بكل وضوح دموع جبران المستوحش الشاذ عن مجتمعه في بوسطن لا جبران الثائر الاجتماعي، جبران الفني بصوت شجي موجع الحان الغربة والحب اللوؤود وتقاسيم الكآبة والتوحد والتحرق الى الوطن مشحونة بنوع من الحنين الغامض الى دنيا مفارقة . اما البسمات في هذه المجموعه فتجسيد للحظات كانت حتى الآن متباعدة في حياة جبران المغترب فبدأت تتزايد وتتقارب وتتواصل في اطراد، لحظات لا يعود فيها لبنان ، بلد الجمال المسحور، فسحة ارضية جغرافية ، بل يتحول تدريجيا في خلد الشاعر ومخيلته الى رمز لوطن علوي الهي مفارق . فبعد محاولات أولية في ادبجبران السابق ، كما في « رماد الاجيال والنار الخالدة » احدى قصص « عرائس المروج » التي يتجلى فيها ايمانه بالتقمص ، اخذ جبران في منثورات « دمعة وابتسامة » الشعرية يعطي حنينه الى الوطن اتجاها افلاطونيا واضحا ومطردا . فغربته قد اصبحت غربة النفس الانسانية السجينة في عالم الزمان والمكان . كما اصبح حنينه الى الديار حنين تلك النفس المتطلعة من خلال سجنها الى عالم الهي مطلق ، منه كان نزولها في البدء وعنه كان نزوحها واليه يشدها الحنين المضني والاشواق المبرحة . من هنا كانت الحياة الانسانية دمعة وابتسامة : دمعة يعتصرها النزوح الميتافيزيقي والتغرب ، وابتسامة يضيؤها امل الانعتاق والعودة الى الديار . وهكذا يصبح المثل التقليدي للبحر والنهر والمطر مالوفا في كتابات جبران : فالمطر هو دموع البحر المنتحب اغترابا فوق الجبال والسهول والاودية ، وخرير الجداول هو اغاني الماء الهازج فرحا في طريق العودة الى البيت الابوي . تقول احدى منثورات جبران الشعر في « دمعة وابتسامة » :

« تتبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق الطلول والاودية حتى اذا ما لاقت نسيمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمت الى الجداول ورجعت الى البحر موطنها . كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادة وتمر كغيمة فوق جبال الاحزان وسهول الافراح فتلتقي بنسيمات الموت فترجع الى حيث كانت ، الى بحر المحبة والجمال ، الى الله ... » (١٢).

لقد عمد جبران ، عندما كان لبنان يجسد صورة الوطن في مخيلته ويشكل موضوع حنينه ، الى صب نقمته وغضبه على اولئك الذين رأى انهم يشوهون وجه لبنانه الجميل البتول . اما وقد بدا موطن جبران يتحول فيذهنه الى عالم ميتافيزيقي أفلاطوني مجرد، فان ثورته المريرة لم تعد مقصورة على رجال الدين والاقطاعيينالمستغلين المستبدين وغيرهم ممن شوهوا في مخيلته صورة لبنانه الحبيب ،بل تعدتهم الى الانسان ككل ، ذلك المغترب في عالمه الزمني المكاني عنوطن الالوهة الذي منه تحدر . لقد كان من الانسان في مغتربه الارضي المادي الدنيء ان مسخ في نفسه صورة الوطن الام ، صورة اللهالكاملة التي كانت له في البدء . وهكذا فان تقزز جبران ونقمته وثورته لم تعد تستهدف المجتمع اللبناني او اي مجتمع محلي آخر ، بلالانسان قاطبة في مجتمعه الارضي الاوسع . مثل هذه النقمة وهذا التقزز هو الذي يشكل الخط الرئيسي المتصل الذي ينظم كلا من قصيدة جبران الطويلة « المواكب » الصادرة سنة ١٩١٩ ، ومجموعة مقالات « العواصف » آخر كتاب صدر له بالعربية سنة ١٩٢٠ ، «والمجنون» اول كتبه الانكليزية الصادر سنة ١٩١٨ ، و (السابق) ثانيهما ، الذي صدر سنه ١٩٢٠ . والكتابان الاخيران مجموعتان من الاوابد والمنثورات الشعرية القصيرة .

– ٥ –

ليست الهجرة في حد ذاتها ، هي التي تخلق فينا الشعور بالاغتراب . فاذا كان الانسان ، كما في المفهوم الافلاطوني الجبراني من مصدر علوي الهي ، كنا جميعا في عالم الزمان والمكان مهاجرين ورفاق طريق . اما الذي يحس الغربة الموحشة المريرة حقا ، فنفس تعي انها من ديار علوية ، ولكنها اذ تتوجه الى رفاقها في الهجرة من بني البشر تجد ان ليس في الدرب الى الله سواها وانهم جميعا لاهون عنها بسفاسف عالمهم الترابي يتمرغون باوحاله في نشوة من يرى فيه غاية الارب ومنتهى المطاف . مثل تلك الغربة المريرة هيالتي احست بها نفس جبران فولدت فيه مزيجا من التقزز من الناسوالتعالي عليهم طغى على المرحلة الثانية من حياته الادبية كلها واضفى عليها صفتها المميزة . اما التعالي ، فلان جبران الذي اعتبر نفسه وحيدا في وعيه الوهيته ، أحس وكانه أرفع من أن ينتمي الى سائر البشر في غبائهم الترابي البليد . واما التقزز ، فلان سائر البشر قد بدوا له من عليائه وكانهم في طينهم الارضي سلالات مزورة ، كأنهم « أبناء الالهة وأحفاد القرود » . (١٣)

ان ذلك المزيج من التعالي والتقزز هو تماما ما يحسه يوسف الفخري بطل جبران في مقطوعته القصصية « العاصفة » (١٤)فيوسف الذي يعتزل الناس تعاليا فيكوخ متوحد بين الجبال العاصية ، يصبح بالنسبة الى الجيرة كلها لغزا يوحي بالجلال والرهبة . الا انه لا يلبث ان يبوح بسر عزلته البطولية وصمته الرهيب لراوية القصة ، جبران ، عندما يضطر في ليلة ليلاء وفد فاجأته العاصفة وهو في الجبال ، ان يلجا الى ذلك الكوخ ، ريثما ينحبس المطر . يقول يوسف الفخري :

« ... نعم باطلة هي اعمال الانسان ، وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والاماني وباطل كل شيء على الارض . وليس بيناباطيل الحياة سوى امر واحد خليق بحب النفس وشوقها وهيامها – ليس هناك غير شيء واحد ... فكرة تفاجيء وجدان الانسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحياة ... منتصبة كبرج من النور بين الارض واللانهاية » (١٥) .

هكذا كان ليوسف الفخري وهو المتطلع الى سائر البشر من على رأس برج الحياة ، من خلال نفسه المتألهة العملاقة كما بدت له في لحظة اشراق مذهلة ، ان يراهم في عيشهم الارضي المكرور البليد عند قاعدة البرج ، في غباء نفوسهم البهيمية التي لا تجرؤ على انترفع ابصارها عن مواخير التراب الى القمم الالهية في كل منهم ، اقزاما يثيرون التقزز والاشمئزاز ، وجبناء مرائين يثيرون الاحتقار والكراهية. يقول يوسف الفخري مكملا ايضاحه لضيفه :

١٢ – م . ن ج ٢ ، ص ٩٥

١٣ – راجع مقاله بهذا العنوان في المجموعة الكاملة ج ٣ ص٤٩.

١٤ – راجع المجموعة الكاملة ج ٣ ص ١٠٠ .

١٥ – م . ن ج ٣ ص ١١١ .

« ... هجرت الناس لان اخلاقي لا تنطبق على اخلاقهم ، واحلامي لا تتفق مع احلامهم ، تركت البشر لانني وجدت نفسي دولابا يدور يمنة بين دواليب تدور يسارا » . الى ان يقول « لا يا اخي لم اطلب الوحدة للصلاة والتقشف ، بل طلبتها هاربا من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وافكارهم وضجيجهم وعويلهم . طلبت الوحدة لكي لا أرى أوجه الرجال الذي يبيعون نفوسهم ليشتروا باثمانها ما كان دون نفوسهم قدرا وشرفا ... » (١٦)

اما في « حفار القبور » ، وهي مقطوعة قصصية أخرى في العواصف ، فان هؤلاء الرجال ، وهم يمثلون في نظر جبران المجتمع البشري باسره ، ليسوا في حقيقة عيشهم سوى جثث متعفنة نتنة . ذلك ما يوضحه لجبران الراوية بطل قصته الذي لا يزيد عن كونه صورة مكرورة ليوسف الفخري :

« انت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون امام عاصفة الحياة فتظنهم احياء وهم اموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم » (١٧). من هنا كانت نصيحة ذلك البطل لمحدثه بان اجلّ صناعة يمكن ان يمتهنها انسان عملاق سما بنفسه الى قمة برج الحياة ، هي حفر القبور . وهكذا ينتهي جبران الراوية الى القول :

« ومن تلك الساعة الى الآن وانا احفر القبور والحد الاموات ، غير ان الاموات كثيرون وانا وحدي وليس من يسعفني » (١٨).

اما اسم محدث جبران وبطل قصته فهو « الاله المجنون » . ولعله باستطاعتنا ايضا وبكل انسجام مع موقف جبران الفكري في هذه المرحلة من حياته الادبية والشعرية ان نعتبر ذلك الاسم مرادفا في قاموسه لـ « الانسان المتأله » .

ان تكون العاقل الوحيد بين مجموعة من المجانين ، يعني انتعتبر المجنون الاوحد في جماعة كلهم عقلاء . اذا كانت الحياة كما يفهمها يوسف الفخري برجا قاعدته الارض ورأسه في الذرى العلوية الالهية اللامتناهية ، فالذي يتشبث بالذروة اللامتناهية علوا فينفسه سيعتبر حتما مجنونا ومنبوذا من قبل المسترخين المتمرغين علىالحضيض عند القاعدة ، ذلك بالضبط ما اعطى « المجنون » في كتاب جبران الانكليزي الاول بهذا الاسم لقبه وشهرته . فالمجنون هذا بعد ان سرقت جميع اقنعته التي كان يتستر بها ، سار في شوارع المدينة عاريا — تماما كما هو شان كل مسافر من المادي الجسدي في نفسه الى السماوي الالهي المجرد . وعندما شاهده في عريه احدهم صاح من على احد السطوح : انظروا انه مجنون . وعندما التفت المجنون الى اعلى قبلت الشمس — نفسه العلوية — وجهه العاري لاول مرة . ومنذ ذلك الحين أصبح مغرما بالشمس ولم يعد يشتاق بعدها ابدا الى اقنعته المسلوبة ، الى علاقاته البشرية الارضية السفلية المنتنة . وهكذا اصبح يعرف ابدا بالمجنون . وكمجنون أصبح بعدها في حرب دائمة على الناس ومجتمعات الناس واعراف الناس .

« المواكب » ، قصيدة جبران الطولى بالعربية ، حوار بين صوتين . والصوتان ، ان نحن ارهفنا السمع ، صادران على ما يبدو ، عن انسان واحد : انه احد هؤلاء المجانين الجبرانيين ، او اولئك الذين سموا بنفوسهم على الطريقة الجبرانية ، الى ذراها الالهية على رأس البرج فاصبح كل منهم اله نفسه . فهو ان القى ببصره الى اسفل فرأى سائر الناس في تمرغهم الحضيضي عند القاعدة ، رفع عقيرته مهزأ من زيفهم منهكما على الهتهم ، ساخرا من نظمهم وتقاليدهم ، شامتا بقيمهم التي يبدو في غبائها وكأنه محتوم عليها ان تظل ابدا في تناقض وفوضى وصدام . وهو ان ارتفع ببصره الى عالمه العلوي الرفيع على قمة البرج ، هناك بعيدا فوق ثنائيات الزمان والمكان وتناقضات الخير والشر ، وخلف الحياة والموت ، هناك حيث تتداخل جميع الثنائيات وتذوب في وحدة شاملة ، رفع صوته مسبحا الحياة الكلية الكونية المطلقة . فاذا ارتفع الصوت الاول قائلا :

« والعدل في الارض يبكي الجن لو سمعوا
به ويستضحك الاموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين ان صغروا
والمجد والفخر والاثراء ان كبروا
فسارق الزهر مذموم ومحتقر
وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر
وقاتل الجسم مقتول بفعلته
وقاتل الروح لا تدري به البشر »

ردد الصوت الثاني من جهته :

« ليس في الغابات عدل   لا ولا فيها العقاب
فاذا الصفصاف القى   ظله فوق التراب
لا يقول السرو هذي   بدعة ضد الكتاب
ان عدل الناس ثلج   ان رأته الشمس ذاب

أعطني الناي وغن   فالغنا عدل القلوب
وانين الناي يبقى   بعد ان تفنى الذنوب »(١٩)

ان يبلغ الانسان قطبه الالهي فيكتمل ، يعني ان يبلغ مرحلة من الطمأنينة النفسية والفهم العميق والرضى والمحبة الشمولية المسكرة. اما وان جبران وأبطاله الجبرانيين ما زالوا الهة مجانين ، وحفاري قبور وأعداء للانسان والمجتمع البشري قاطبة ، اما وانهم ما زالوا ، على الرغم من زعمهم بلوغ قطبهم العلوي على رأس برج الحياة ، مفعمين بالمرارة والثورة المسمومة الحانقة ، فدليل على ان الاكتمال الجبراني المزعوم خلال هذه المرحلة الثانية من ادب صاحبه كان اقرب الى الادعاء منه الى اليقين والى الوهم والايهام منه الى واقع حال راهن محقق. فكأن انشغال جبران « المجنون » او جبران (السوبرمان) بصراعه الشخصي العنيف من اجل تبين وجه الحق ، وبوحدته الذاتية المريرة على درب التسامي الروحي ، قد حال ليس فقط بينه وبين غبطة الاكتمال على رأس برج كان في الواقع ما يزال بعيدا كل البعد عن بلوغه ، بل ايضا بينه وبين ان يعي المأساة الكبرى في حياة اخوان له في الناسوت ضائعين غارقين في اوحال دنياهم عند القاعدة . وهكذا كان لجبران ان اعلن تقززه من الناس وسخطه وحقده عليهم ، في حين كان ينتظر ان يثير فيه ضياعهم وهو المهتدي ، حنانا ورثاء ورأفة ومحبة .

اما وقد أفرغ جبران في هذه المرحلة جميع ماكان في نفسه من سخط ومرارة على الانسان ومجتمعه ، فقد تحتم عليه بحكم طبيعة المرتكزات التي قام عليها تفكيره ان يعبر في تطوره الفلسفي الى مرحلة لاحقة ثالثة . انها مرحلة « النبي » ، مؤلفه الام ، (ويسوع

١٦ — م . ن ج ٢ ص ١٠٦ .
١٧ — م . ن ج ٢ ص ١١ .
١٨ — م . ن ج ٢ ص ١٥ .
١٩ — م . ن ج ٢ ص ٢٤٧ .

بن الانسان) و « آلهة الارض » الذي كان خاتمة أعماله . وقد أتى « السابق » ، وهو مجموعة أوابد ومنثورات شعرية صدرت سنة ١٩٢٠ ، وكأنه العتبة الفاصلة بين المرحلتين .

أن نؤمن كما آمن جبران بأن الحياة برج قاعدته الارض وقمته اللانهاية المطلقة ، يعني أن نؤمن أيضا بأن الحياة جميعا وحدة متماسكة لا تنفصم ولا تتجزأ . فالقمة لا يمكن أن تعلو الى أبعد مما تستطيع أن ترتفع بها القواعد التي تقوم عليها . أما أن يتنكر أحدهم ، وهو في قمة برج الحياة لأولئك الذين هم في القاعدة وأن يرفضهم كما فعل جبران حتى الآن ، فيعني في الحقيقة أن يقوض الاعالي التي هو فيها وأن يجعل نفسه أحط وأدنى حتى من أسفل الذين يتنكر لهم ويرفضهم. من هنا كان لاحدى منثورات جبران الشعرية الصافية في « السابق » أن تقول وكأنها تحاول التكفير عن كل ما صدر عن جبران من ثورة نيتشوية متسرعة جارفة :

« كم أنا غر بعد ومغضب لأكون ذاتي المطلقة » .

وكيف لي أن أبلغ ذاتي المطلقة الا اذا ذبحت ذواتي المكبلة ، أو الا اذا غدا الناس جميعا مطلقين .

كيف للنسر في ذاتي أن يحلق أمام وجه الشمس قبل أن يغادر فراخي العش الذي بنيته أنا نفسي لهم بمنقاري » . (٢٠)

ان ايمان جبران بوحدة الحياة الذي كان حتى الآن يلوح متقطعا في كتاباته وأحيانا مشوشا ، ثم لا يلبث أن يفور ، قد غدا فيما بعد بجميع مستلزماته الفكرية الاخرى ، المحور الذي دار حوله ما تبقى من مؤلفاته جميعا .

اذا كانت الحياة وحدة كلية لا متناهية ، فان كل كائن حي بالتالي ، وخاصة الانسان ، هو عالم أصغر . انه اللامتناهي وقد لف بالقمط ، كما لو كان ، تماما كما هي البذرة بحد ذاتها شجرة كاملة مقمطة .

تقول احدى شذرات جبران في واحد من مؤلفاته اللاحقة «كل بذرة هي كتلة من حنين » . (٢١) وان الذي نفهمه بهذا الحنين ، انه شوق الشجرة في البذرة الى تمزيق الجدران التي تكتنفها والانطلاق نحو الاكتمال في الشجرة التي كانتها قبل أن تدخل القمط . فكل بذرة اذن تنطوي في ذاتها ليس فقط على أشواقها ، بل أيضا على صورة الاكتمال الذي تشتاقه وعلى الطريق المؤدي الى ذلك الاكتمال. ان نعتمد القياس نفسه بالنسبة الى البشر يعني أن نقول ان كل انسان هو بذرة الهية ، انه الحياة اللامتناهية المطلقة في القمط . فكل انسان بالنسبة الى جبران اذن ، هو كتلة من حنين . انه حنين الاله المقمط في الانسان الى الانسان في الله الذي كانه قبل أن يدخل القمط .

في احدى شذرات جبران أن « ما من حنين الا ويتحقق » (٢٢) ما من انسان اذن ، الا وهو صائر الى التأله ، الا وهو عائد الى الله الذي منه كان صدوره في البدء . انه ، كالبذور ، ينطوي في ذاته ليس فقط على الحنين الى الله ، بل أيضا على صورة الله موضوع حنينه ، وعلى الطريق المؤدي الى الاكتمال على تلك الصورة . من هنا يأتي قول جبران في السابق :

« أنت سابق نفسك . والابراج التي بنيتها حتى الآن ليست غير القواعد في نفسك العملاقة » (٢٣) .

ما أن أرى جبران الانسان بهذا المنظار حتى لم يعد بمقدوره أن يكون « حفار قبور » . ان مرحلة جديدة في حياته قد بدأت . الناس جميعا سنويون الهيون ، وليس في امكانهم يصح الموت . أما انهم يتمرغون في أوحال عالمهم الارضي ، ويتلهون بسفاسفه ، فذاك ليس لانهم من الخسة بحيث يثيرون في النفس التقزز ، بل لانهم في جهلهم ذاهلون عن الله في نفوسهم . شأنهم في ذلك شأن قطعة الخشب الهشة الباردة في ذهولها عن النار الهاجعة في داخلها ، حتى اذا مسها قبس خارجي منبه ، استيقظت تلك النار وتفجرت فيضا من لهب ونور . لا ، ليس الى حفار قبور يفتقر الناس ، بل الى منبه موقظ ، الى قابلة سقراطية ، تسعفهم على ايقاظ الله الهاجع في نفوسهم كيما تغدو تلك النفوس واحدة مع الله .

وهكذا ينسدل الستار في هذه المرحلة الجديدة على المغضب والمجنون وحفار القبور في جبران ، ليبرز مكانه جبران المنبه والموقظ والنبي .

(البقية في العدد القادم)

نديم نعيمة

بيروت

٢٠ ـ The Forerunner ص ٧ .

٢١ ـ Sand and Foam ص ١٦ .

٢٢ ـ م . ن ص ٢٥ .

٢٣ ـ The Forerunner ص ٧ .

يصدر قريبا :

موضوعات في

الجبهة الوطنية التقدمية

تأليف الاستاذ عزيز السيد جاسم

١) ـ بعد بروز ظاهرة « الرجعية الجديدة ما هي أسس العمل الثوري العربي المعاصر ؟
في هذا الكتاب اجابة علمية على هذا التساؤل الهام .

٢) ـ لماذا تتأكد اهمية الجبهة الوطنية التقدمية بعد هزيمة حزيران ؟
هذا الكتاب اجابة على ذلك السؤال الجوهري .

٣) والكتاب المذكور ، محاولة جادة لتقديم تحليل نظري ثوري لاهمية الجبهة الوطنية التقدمية في عموم الوطن العربي .

منشورات مكتبة النهضة ـ بغداد

التوزيع للعالم العربي ـ دار الطليعة ـ بيروت